المنظور الأمريكي لفلسطين (الأرض المقدسة) ... أبرياء في الخارج

شذى يحيى*

في مايو ٢٠٠٩م، وبعد أشهر فقط، من تولي أول رئيس أسود مقاليد الحكم في الولايات المتحدة الأميركية قام رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتانياهو بزيارته الأولى لساكن البيت الأبيض الجديد، والذي حظي بشعبية كبيرة لدى الشارع العربي المتفائل بالرجل الذي كانوا يرون فيه مدافعاً عن حقوق المظلومين في العالم، ووسط شائعات ملأت الأجواء بأنه غير راض عن السياسات القمعية التي تنتهجها إسرائيل ضد الفلسطينيين، وبأنه سيسعى لتغيير سياسات بلاده المنحازة دائماً وأبداً للصهاينة، ذهب نتانياهو واصطحب معه هدية للرئيس المنتخب، هدية لم يوافق عليها غالبية مستشاريه، ولم تكن هذه الهدية المختلف عليها، أكثر من كتاب رحلات كتبه الروائي الأميركي الأشهر مارك توين عن مشاهداته خلال رحلته إلى أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر، وصدر في العام١٨٦٩م بعنوان "أبرياء في الخارج"، وكان سر إعتراض مستشاري نتانياهو أن الكتاب حفل بمشاهد وآراء عنصرية عن المسلمين والملونين، وهو ما قد يثير حفيظة أوباما، ويخلق أزمة دبلوماسية قد تسيء للعلاقات بين الحليفين، ولكن نتانياهو كان مصراً على الهدية، وكان يعي جيداً أن أوباما سيفهم دلالاتها، وللحقيقة فإن دلالة هذا الكتاب والذي يعد أكثر كتب الرحلات مبيعاً في تاريخ الأدب الأميركي، وشكل جزءاً كبيراً من رؤية وعقلية المواطنين الأميركيين تجاه العرب، وما يجري في منطقتهم بعد الكتاب المقدس، وكتاب ألف ليلة وليلة، أو ما يعرف باسم الليالي العربية، وهو أيضاً "ابرياء في الخارج" درة ما يعرف بإسم أدب الإمبريالية الثقافية وواحد من أهم نتاجاتها الكثيرة، هدية أراد

* كاتبة وباحثة من مصر

نتانياهو بها أن يذكر أوباما بأن الشراكة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، هي شراكة فكرية وليست مجرد شراكة تقوم على المصالح، وأنها شراكة تتعدى حدود أفكار الأشخاص، لأنها تقوم على بنيان الدول، وعلى منظومة بدأت منذ بداية القرن التاسع عشر عندما طرح بونابارت فكرة الدولة اليهودية للمرة الأولى، وما تلا ذلك من بزوغ ثقافة الاستشراق التي حدد فيها الغرب هوية قياساً بالشرق، كما قال إدوارد سعيد في كتابه الشهير "الإستشراق" وكذلك حمّى الأرض المقدسة والتبشير، التي اجتاحت أميركا بعد نهاية الحرب الأهلية، وارتباط صعود الدولة الأميركية بمملكة الله على الأرض في ذهن المواطن الأميركي العادي، هذه الروابط الثقافية هي ما أراد نتانياهو أن يذكر به أوباما بهذه الهدية، بل ويضغط بها عليه أيضاً فلم تكن الثقافة يوماً قوة ناعمة كما يحلو للبعض أن يطلق عليها، بل هي دوماً القوة الضاربة الحقيقية وراء الجيوش والحروب بل وحتى مفهوم الرفاه الاقتصادي، فقوة السيطرة على العقل هي القوة التي تحرك الحروب الجرارة، وهي أيضاً القوة التي تلحم بنيان الدول، لذلك كان الهدف الأساس للإمبريالية الثقافية السيطرة على عقول الشعوب الغازية وإعطائها شعوراً بأنها تحمل مشعل الحضارة والمدنية، وأن لها أهدافاً نبيلة تتمثل في الخير والسلام والرخاء للإنسانية جمعاء.

أما الهدف الثاني للإمبريالية الثقافية فهو السيطرة على عقل الشعوب المحتلة، عبر إنشاء نخبة ثقافية تعتنق أفكار وقيم الإحتلال، أو تدجين النخبة الثقافية الموجودة بالعطايا المادية والمعنوية، وإقناعها بأنها تساعد في نشر قيم الحضارة والحرية والمدنية بين أفراد الشعب لتساعدها هذه النخب في قولبة أفكار العامة، فتصبح أكثر رضوخاً لفكرة هيمنة المحتل، وتقوية الإحساس بأن ثقافتهم أقل شأناً، وأنهم بحاجة للآخر المهيمن ليحققوا ازدهارهم وتقدمهم، ،هذا الأسلوب لم يكن حديثاً بل هو قديم قدم الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية، لكن عصر الثورة الصناعية وتقدم وسائل الاتصال والتكنولوجيا جعله يتخذ منحى أكثر قوة ووضوحاً في القرن التاسع عشر، وتتعدد وسائله بدءاً من المستشرقين والرحلات السياحية والاستكشافية وكتيباتها الإرشادية، والأعمال الأدبية الروائية والشعرية والفوتوغرافيا، والأعمال الفنية والمعارض العالمية، وبعثات التبشير وصولاً لليوم، وبعد عصور العولمة وثورة الإتصالات بالمذياع والتلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي مثل تويتر وفيسبوك ويوتيوب .....إلخ.

وكان الهدف هنا ليس مجرد تعريف الغرب بالشرق، ولا حتى التواصل معه أو تحديد الهوية قياساً به فقط، بل كان الهدف الأساس هو خلق بنية متكاملة من المعلومات والقوى التي تحدد مفهوم الشرق، وما هو شرقي من المنظور الغربي، ثم تقديمها للغربيين رؤية تعتمد على فكر الغرب أكثر مما تعتمد على حقيقة الشرق ،هذه الرؤية تعتمد على منظومة القيم والمعارف والأيدولوجيات

الغربية في إطار العلاقة بين الشرق والغرب، وطبقاً لهذا أصبحت الكتابات الغربية الاستشراقية كاشفة للقيم الغربية تجاه الثقافات الشرقية، وليست راصدة لهذه الثقافات، وهي النظرية التي تنطبق على الكتابات الأدبية الأميركية عن الشرق بمقدار إنطباقها على الكتابات الأوروبية، وهو ما لم تكن كتابات توين إستثناء عنه، رغم أنها كتبت قبل أن يصبح الشرق الأوسط محل اهتمام إستراتيجي وإقتصادي للولايات المتحدة، أو كما تقول الباحثة ميلاني ماكاليستر " أن الشرق الأوسط لم يكن في البداية إهتماماً أميركياً، بل كان ينبغي أن يصنع منه إهتماماً أميركياً على المستوى الشعبي، وهنا جاء دور المنتجات الثقافية التي ولدت لدى الرأي العام الشعور بوجوب الاهتمام الديني والإستراتيجي بهذه المنطقة البعيدة من العالم، والتي أدت بدورها لمناقشة علاقة الشرق بالمسيحية واليهودية، والتباين والصراعات التاريخية والثقافية والقيمية بين سكان الشرق الحاليين والعالم الغربي عموماً، وبهذا أصبح الشرق البعيد محل إهتمام القارئ الأميركي العادي من خلال الخلاف، أي أن الشرق قُدم منذ البداية كثقافة معادية لقيم الحضارة الغربية، وكان محل اهتمام من خلال هذا المنطلق".

نعم لم يكن الشرق الأوسط محل إهتمام كبير ربما حتى لفترة ما بعد الحربين العالمية الأولى والثانية، ولم يكن معروفاً جداً قبل منتصف القرن التاسع عشر بالنسبة للأميركيين، لكنه لم يكن مجهولاً بالكلية أيضاً فالإتصالات الأميركية الشرق أوسطية كانت موجودة منذ مرحلة ما قبل إستقلال الولايات المتحدة عن الإستعمار البريطاني، كما شكلت ما يعرف بالحروب البربرية في الفترة من١٨٠١م إلى ١٨٠٥م عاملاً مهماً في خلق الهوية الأميركية التي كانت نواة لإتحاد الولايات فيما بعد، وذلك في أول تجربة عندما شكلت الولايات أسطولاً موحداً للحرب على شمال إفريقيا، وربما كان هذا أول مراحل النظر إلى الشرق كثقافة معادية في وجدان الأميركيين الأوائل، أيضاً كان الشرق الأوسط هو الأرض المقدسة التي يحفظ الأميركيون المتدينون تضاريسها من خلال الكتاب المقدس، ورغم حظر السفر إلى الأرض المقدسة في أوائل القرن التاسع عشر؛ كانت كتابات وأدبيات المبشرين والإرساليات البروتستانتية مصدراً للمعلومات والمعرفة لدى المواطن الأميركي بالأراضي المقدسة، وقاطنيها من العرب والأتراك، ووسيلة لخلق مفهوم معين عن هذه الأرض عضدته رؤية مارك توين في كتابه "أبرياء في الخارج" أحياناً، وخالفته في أحيان أخرى كثيرة، ولم تقتصر المعرفة الأميركية بالشرق على هذه المصادر، بل عززتها أيضاً إعادة طبع منشورات وكتب لأوروبيين عن المنطقة، كذلك مشاهدات ومذكرات لمهاجرين جدد شاركوا في حروب بلادهم القديمة ضد العرب والأتراك، بالإضافة إلى إضطرار رؤساء الجمهورية المستنيرة المتحضرة الأوائل في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر لدفع الجزية لولاة الهمج كما أطلقوا عليهم في الجزائر وطرابلس

وتونس، مما عده الأميركيون وصمة عار لطخت رؤسائهم العظام مثل جون آدم وتوماس جيفرسون، وبهذا كان الموقف الأميركي الأول تجاه الشرق الأوسط موقفاً عدائياً لأسباب إقتصادية وسياسية في المقام الأول، وعقدة بالتفوق كدولة متحضرة أمام كيانات همجية بغض النظر عن النشاط الأميركي في إختطاف البشر من مناطق السواحل الأفريقية وبيعهم كعبيد في الولايات المتحدة!، لقد آمن الأميركيون الأوائل أنهم يمثلون قمة الحضارة الغربية التي هي قمة الحضارة والحداثة والتقدم في العالم، ورأوا أن العرب لا يضاهوهم في تقدمهم ولا ديمقراطيتهم ولا حتى ثقافتهم، وكرسوا في أذهانهم التفوق الثقافي والمعرفي والقيمي الغربي أمام الدونية والجهل والطفولية الشرقية، ولم تفلح اتفاقية التبادل الحر للملاحة والتجارة بين الولايات المتحدة والإمبراطورية العثمانية في تغيير هذا المفهوم، بل على العكس عضد الإحتكاك التجاري المباشر من الفكرة المسبقة، وقواها لأن الذاهبين إلى الشرق كانوا يطبقون فكرهم المقولب مسبقاً على كل ما فيه، على العكس نما الآن في الوعي الأميركي أن الإسلام دين معاد لقيم التقدم الغربية الأميركية، فمعاملة العثمانيين وفكرهم وقوانينهم صورت في الذهن الأميركي المتأثر بأفكار مفكرين جمهوريين كدوجلاس ليتل، لم يرَ في محمد إلا غازٍ أجبر أهل الجزيرة العربية والأفارقة على إعتناق منظومة من الأفكار الملتوية بحد السيف، وان هذه الأفكار هي السبب الرئيس في تخلف الشرق، كما وجد الأميركيون في كتابات فلاسفة أوروبيين مثل جان بودين ودينس ديدرو ومونتسكيو ما يعضد هذه الفكرة، وهكذا دخل الدين مع السياسة في الرؤية الأميركية وجاءت الحرب اليونانية التركية في العام١٨٢١م لترسخ مفهوم الخلاف الديني أكثر فأكثر بين الإسلام والولايات المتحدة، خاصة مع الولع الأميركي بما عرف بالفيليلينيزم Philhellenism والخلافة الأميركية للديمقراطية الإغريقية، هذه الفكرة التي كانت إحدى محركات حرب الإستقلال عن بريطانيا، وأصبحت حتى يومنا هذا محدداً للصراع بين الغرب (الديمقراطي) والشرق الأوسط الدكتاتوري، وبين الإسلام الرجعي والمسيحية المستنيرة، مع هذا لم يرفض الأميركيون الشرق بالكلية رفضوا دينه وأناسه لكنهم لم يرفضوه كأرض، فمازال الشرق هو موطن الديانة وحلقة الوصل مع الإله، ولهذا كان الشرق المتخلف الجاهل مهماً لأسطورة إمبراطورية الله الأميركية؛ التي جمعت أعظم ما صنعه الإنسان ووضعه الله، وبهذا اكتسب الشرق أهميته الإستراتيجية كونه ضرورة لإبقاء دعائم الإمبراطورية المتفوقة بتخلفه، وكان لابد أن يصبح للدولة التي هي إسرائيل الجديدة ذلك الرابط مع إسرائيل القديمة التي تمثلها الأراضي المقدسة؛ فرأى الأميركيون البروتستانت البيوريتانيون أنه يجب أن تعكس إسرائيل القديمة الشكل الذي يحلمون به لإسرائيلهم الجديدة، لتكتمل أسطورة الحلم الأميركي بإمبراطورية الله على الأرض، وهكذا أصبح للرحلات إلى الأرض المقدسة في الحياة الأميركية معنىً جديداً، معنىً يرتبط بالوجود الأميركي نفسه

هذا المعنى هو الذي جعل الرأي العام الأميركي دائماً متحمساً لتغيير الشرق الذي يرفضه لشرق أكثر قبولاً من وجهة نظره، وأكثر تماشياً مع أسطورة الإمبراطورية الأميركية، شرق يؤمن بقوة وقدرة القيم الأميركية على حمل الكرامة الإنسانية والعدالة عبر العالم، وقد حملت الإرساليات هذه القيم قبل أية وسيلة أخرى، فقد أسست أول إرسالية أميركية في الأراضي المقدسة في العام١٨٢١م تحت رعاية ليفي بارسونز وبليني فيسك، وكان ممنوعاً عليها ممارسة العمل مع المسلمين طبقاً للقوانين العثمانية، فاتجهت الإرسالية لممارسة نشاطها مع الأرمن والمارون والأرثوذكس؛ على أمل أن يقنع هؤلاء مسلمي القدس بالتحول للمسيحية، وبدأ إنشاء المدارس مثل مدرسة روبرت في إسطنبول والكلية السورية البروتستانتية التي تحولت بعد ذلك إلى الجامعة الأميركية وفي غضون ثلاثين عاماً وبحلول العام١٨٥٠م أصبح عدد البروتستانتيين في الإمبراطورية العثمانية يعتد به، مما دفع السلطات البريطانية وتحت ضغط أميركي لأن تطلب من السلطان العثماني بأن يعترف بالبروتستانت كأحد مكونات الدولة، هذا النجاح الهائل لاقى صدى كبيراً في الولايات المتحدة بسبب النشرات التي كانت هذه الإرساليات تصدرها في الوطن الأم لتبين للجمهور تطور مراحله، مما دفع المواطنين الأميركيين لتقديم الدعم المادي والمعنوي والإيمان بأنه يمكن إنقاذ العرب من تخلفهم، ومن حكم العثمانيين عن طريق هدايتهم للإنجيل وتعاليمه، حتى أن القس ويليام تومسون راعي واحدة من أكبر هذه الإرساليات كتب كتاباً صدر في العام١٨٥٩م بعنوان "الأرض والكتاب"، وارسى فيه أسس هذه النظرية وباع مئتي ألف نسخة في الولايات المتحدة في وقتها، وأعقب هذا الكتاب مئات من الكتب المماثلة التي تحدثت عن نفس النظرية ولاقت رواجاً هائلاً في مختلف الولايات، كان الهدف الرئيسي من هذا الكتاب ومن بقية الكتب إرساء العلاقة الوثيقة بين الأرض المقدسة والكتاب المقدس، وجعلها مفهوماً واحداً لا ينفصل في الذهنية الجمعية الأميركية، هو مفهوم قواه أيضاً المؤلف الذي كتبه البروفيسور إدوارد ربينسون، وهو أستاذ للدراسات العبرية واليونانية عن رحلته للأراضي المقدسة في العام١٨٣٨م، عنونه باسم "أبحاث إنجيلية في فلسطين وجبل سيناء"، وصدر في ثلاثة مجلدات في العام١٨٤١م، ضمنه دراسات تاريخية وجغرافية ونقدية ووصفية، لتمنح القارئ والحاج الاميركي رؤية أميركية خالصة، وخاصة به للأرض المقدسة ،لقد طابق روبنسون جغرافية المشهد الفلسطيني على وصف الكتاب المقدس، برؤية بروتستانتية خالصة، وفي مؤلفه هذا أعطى لبعض القرى العربية أسماء ومواقع ذكرت في الكتاب المقدس، بدون أي دليل بحثي على صحة، هذا وحدد بهذه الرؤية الجغرافية ما سوف يراه الحاج البروتستانتي، وما سيتوقعه في الرحلات التالية، خاصة أنه بنهاية الحرب الأهلية الأميركية وانتشار استخدام السفن البخارية، لم يعد السفر إلى الأراضي المقدسة مجرد حج وتبشير ديني، بل أصبح أيضاً سياحة تدل على المكانة الإجتماعية

والإنتماء للشرائح العليا من الطبقة المتوسطة، والطبقات الأعلى، وبهذا أصبحت تجربة زيارة الأرض المقدسة لها جوانب اجتماعية، وليس مجرد زيارة دينية، فأصبحت تجربة ذات جوانب عقلية وإستشفائية وبحثية، بالإضافة إلى كونها تجربة تطهيرية دينية وتواصل مع الجذور الأولى للديانة، كما أصبح السائح أكثر إهتماماً بالجوانب الثقافية للشعوب الأخرى، ويرى في السياحة جانباً تعليمياً، وإثراءً معرفياً يرتبط بكون الشخص ينتمي لطبقة رفيعة، هذه الطبقة كان جل إهتمامها المادة والجوانب المادية للرحلة، أي الحصول على أقصى استفادة من الأموال التي دفعوها، كذلك كان الإهتمام بإستعمال أكبر قدر من المخترعات العلمية، والوسائل الحديثة وقد أدى هذان الاهتمامان لكثير من التغيرات في الأرض المقدسة، فتم التوسع في إنشاء الفنادق ووسائل الترفيه ومتطلبات السياحة الفارهة، كما ظهرت مهنة المرشد السياحي الذي كان من أبناء البلد وحل محل القس، ولكن هذا لم يغير من حقيقة أن السائح كان مازال يبحث عن الصورة الذهنية المسبقة على الأرض، ويسعى لإثبات ما قرأه من خلال المعايشة، فأصبح البشر والطبيعة في مخيلة السائح كمعرض كبير، يستعين لفهم معروضاته بالشروحات والتجارب السابقة عليه، أي أن التجربة الشرقية في عين الأميركي تغيرت كثيراً عن مجرد الحج، ولكن المحصلة والنتيجة ظلت واحدة، فقط أضيف للبعدين السابقين لصورة الشرق الأوسط في الذهنية الأميركية البعد السياسي، والبعد الديني بعد جديد، ألا وهو البعد الإقتصادي الإجتماعي المتمثل فيما عرف بسياحة الحج كدليل على الثراء والمركز الإجتماعي ، ولمواكبة السياحة كان لابد من وجود نصوص تختلف عن القصص الديني، والكتب التبشيرية والليالي العربية لتتناسب مع الوافد الجديد للشرق الأوسط، رغم أن هذه الكتابات الأولية كانت بمثابة المحفز الأولي للذهن الأمريكي تجاه الشرق الأوسط، وهي أيضاً ما زود العقل الأميركي بالمفاهيم الثقافية اللازمة لإستيعاب كتاب "أبرياء في الخارج"، والذي كانت شركات السياحة الأمريكية توصي مسافريها بالحصول على نسخة منه بالإضافة لكتب أخرى، و للحصول على فهم أعمق لفلسطين ،فما الذي جعل هذه الأهمية لكتاب توين والتي جعلته محط الأنظار حتى يومنا هذا؟!

قبل توين كانت الكتابات غالباً ما تتحدث عن فقر العرب، وتدهور أحوالهم كدلالة على دونيتهم وتختلط فيها تجارب السياح الشخصية مع حكايات سمعوها، وقصص من الكتاب المقدس وأساطير عن الحروب الصليبية ومغامرات فرسانها مع العرب الهمج، فجاءت كتابات من كتبوها متطابقة إلى حد كبير لأنها أتت من نفس الخلفية، حتى أن توين كتب منتقداً هذه الكتب قائلاً "بإمكاني أن أذكر لك بالنص ما كتبوه عما رأوه في طبرية والناصرة وأريحا والقدس، لأن لدي الكتب التي استقوا أفكارهم منها" وهذه الكتب بالفعل شكلت القالب الذي وضعه السائح الأميركي في مخيلته

للأرض المقدسة، ولم يكن المسافر ما بالك بالقارئ ليجرؤ على التفكير في أن واقع الشرق قد يكون مختلفاً عما كتبه هؤلاء الأوائل، ولذلك فسواءعاين ذلك المسافر المظاهر الثقافية للأراضي المقدسة على الطبيعة أو قرأ عنها في الكتب، فإنه يقوم بتحديدها طبقاً للكتابات والنظريات والآراء المسبقة التي وضعت ،ثم جاء توين ورفض هذه الكتابات التي نعتها بالرومانسية والخيالية وسخر منها، ولكنه أيضاً ورغم هذه السخرية أعطى للقارئ الأميركي رؤية جديدة للعرب والشرقيين إتفقت مع سابقاتها في إظهار الشرقيين كجهلة وقذرين ومتخلفين، وأختلفت معها في إدعائه أنها قائمة على الواقع دون مبالغة ولا إسقاطات دينية عقائدية، لكن الحقيقة أن واقعية توين كانت جاهلة وإنطباعية لأنه زعم تقديمه لصورة حقيقية لأرض وثقافة وأناس لم يتواصل معهم، ولم يكن يتكلم لغتهم ورآهم من منطق كلمة (بقشيش) مجرد شحاذين فكانت واقعيته غير صادقة لأنها اعتمدت على ترجمته هو لما رآه، وليس التوصل لحقيقة ما حوله، فعلى سبيل المثال لم يخرج توين عن الرأي الأميركي المعادي للإسلام، ولكنه أرجع هذه العداوة لأسباب إدعى فيها أن الإسلام ضد التقدم والمدنية، وأنه عقيدة تدعو للقدرية وتكرس للرضا بالعبودية، ونفى تماماً أن يكون العداء بسبب إنحيازه للمسيحية، وكان صادقاً في هذه لأنه انتقد الكاثوليكية أيضاً لنفس الأسباب ،ما فهمه توين عن الإسلام هو أنه دين يدعو إلى تحمل شظف العيش والإساءة في هذه الحياة، على أمل الحصول على الراحة والرفاهية بعد الموت، لهذا رأى فيه ديناً يدعو إلى التأخر ويمنع معتنقيه من أن يكونوا أفراداً فاعلين في هذا العالم، ولكنه كان أكثر تسامحاً من معظم معاصريه عندما دعا إلى تغيير ذلك من خلال إطلاع الغربيين للمسلمين على أفكارهم، ومحاولة تغيير نمط حياتهم ومعتقداتهم ليتناسبوا أكثر مع العالم المتقدم، وهي الرؤية التي ربما مازال الغرب يحاول تطبيقها في الشرق الأوسط حتى يومنا هذا.

لم يرَ توين في عرب سوريا وفلسطين غير القذارة والجهل والمرض، حتى حيواناتهم رآها قذرة ومريضة، ومقاهيهم وحماماتهم عفنة، ووصف الأحلام والقصص التي تروجها الكتب والكتيبات السياحية بأنها خدعة كبيرة، وأن السياحة في الشرق ماهي إلا عملية نصب منظم على الأميركيين المتقدمين العظماء فخر المدنية والنظافة والنظام في العالم الحديث، ولكنه عاد فأكد أن العرب أيضاً جنس طيب يتميز بالذكاء والسماحة إن توفرت له ظروف التعليم المناسب والعيش بحرية وعدالة، أما في حالتهم هذه فهم أقرب للدواب منهم للبشر أو على حد قوله "إنهم لا يعترضون على القذارة ولا الأسمال والعبودية، ولكنهم يحبون أن يكونوا أنقياء وأطهار أمام إلههم" وكان الحل من وجهة نظره لمأساة العرب هذه؛ أن تقوم روسيا بغزو الإمبراطورية العثمانية لتخلص العرب من معاناتهم وهو رأي غريب من رجل كان من أهم دعاة الحركة المضادة للإمبريالية، وإن كان رأيه أن هذا لا

يتعارض مع ذاك، فلا بأس من تدخل عسكري محدود لقوى كبرى لتخليص الناس من معاناتهم، وبهذا المنطق ساند توين أميركا في حربها مع أسبانيا على كوبا في العام١٨٩٨م ، وبهذا الطرح مهد توين للجمهور الأميركي الإهتمام بحاضر فلسطين، ليس لمجرد كونها مزاراً دينياً وموطناً للإنجيل، بل لكونها أيضاً مسكناً لأناس بحاجة للحاق بركب التطور والمدنية حتى ولو بالقوة، إن كانوا يريدون تحقيق نبوءة مملكة الله فعلاً فعليهم أن يكونوا فاعلين في إلحاقها بركب المدنية والتطور، وليس مجرد الحج لها ومشاهدة معالمها أي أنه عندما هاجم الطرح الرومانسي لفكرة الأرض المقدسة لصالح طرح أكثر واقعية كما يقول، لم يكن برفض الفكر الديني بل كان يريد أن تتم ممارسته بشكل فاعل مواكب للعصر، وهنا يظهر أن توين كان من الأوائل الذين ساهموا في توجيه إهتمام الرأي العام الأميركي لمناطق كانت خارج إهتماماتهم العادية فعين المواطن العادي كانت دائماً نحو ما يجري في أوروبا من منطلق المصالح المشتركة مع الأوطان الأم، لكن توين أعطاهم الآن ما أطلقوا عليه مثالاً لمنظور غربي رائد تجاه الشرق يدعم فكرة تفوقهم، وما دعم هذه الفكرة أكثر وجعل لها شعبية أكبر في أوساط الأميركيين أنها لم تأت من أحد النخب أو الأثرياء بل جاءت من صحافي ينتمي للطبقة المتوسطة في وسط أميركا ميسوري بالتحديد وأنها جاءت واقعية تخلو من رومنسيات النخبة والمتأثرين بأفكار مفكري القارة القديمة، بالرغم من أن الأفكار التي كتبها توين لم تختلف في مضمونها عن أفكار الأميركيين الأوائل، ومن أنه أخضع الشرق الأوسط لنفس القالب الجاهز الذي تشكل عبر عقود، لهذا كان "أبرياء في الخارج" هو الهدية المناسبة بكل المقاييس لإهدائها من نتانياهو لأوباما فهو خلاصة الفكر الثقافي الأميركي الخاطئ تجاه الشرق الأوسط، والذي تطور عبر عقود من سوء الفهم والأحكام المنحازة للتفوق الغربي وللنظرية الإستعمارية، واليوم وفي نهاية الفترة الثانية والأخيرة من حكم أوباما يبقى الوضع على ماهو عليه، ويبقى شعار السياسة الأميركية الخالد "نحن ملتزمون بامن إسرائيل"، وتظل الخارجية الأميركية تردد جملتها الشهيرة "من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها" لأن الثقافة الأميركية بنيت على أن وجود إسرائيل ضرورة، وانها سفيرة أميركا للمدنية والحرية والتقدم في أرض لم تتغير منذ زيارة مارك توين لها.

المراجع:

١- شذى يحي – مارك توين عراب أسطورة أرض الميعاد – مجلة الهلال – عدد نوفمبر٢٠١٥م

2-The Romance of the Holy Land in American travel writing (1790- 1876) - Brian Yothers –Ash Gate e-Book2007 –Burlington .USA

3-Cultural contact and cultural change Colonialism and Empire – Anne Marie Carsten's

4-Anglo- American Orientalism's – Contribution to the rise of Area studies

المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات –عبد الفتاح نعوم – ورقة بحثية أبريل٢٠١٥م

5-The Orientalist reality, tourism and photography – Tessa Handa –Duke University 2012

6-The traveling and writing self –Marguerite Helmers and Tilar Mazzeo – Cambridge Scholar publishing 2007

7- American Palestine: Mark Twain and touristic commodification of Holy Land –Hilton Obenzinger – working paper

8- American Palestine: Melville, Twain, and the Holy Land mania - Hilton Obenzinger 1999 –Princeton University Press

9- Unlearning great many things: Mark Twain, Palestine and American perspectives on the orient – Christopher Hyde – Trinity College